سمير علي عزام

حُكمُ قَرَاقُوش

الأمير المفترى عليه بهاء الدين قراقوش

دار البيارق

بسم الله الرحمن الرحيم

«من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا»

صدق الله العظيم

حُكمُ قَرَاقُوش

(الأمير المفترى عليه بهاء الدين قراقوش)

سمير علي عزام

دار البيارق

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

دار البيارق
مؤسسها وصاحبها: سمير علي عزام

مؤسسة اسلاميه مستقلة تأسست عام١٩٨٦م تحت اسم (دار النهضة الاسلامية) وقد تحول اسمها الى (دار البيارق) عام١٩٩١م لظروف قاهرة .غايتها نشر وتوزيع الكتاب الاسلامي الهادف .

عضو
الاتحاد العام للناشرين العرب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم
وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ﴾

دار البيارق

دار البيارق
للطباعة والنشر والتوزيع
الأردن: عمان - ص.ب: ٨٦٤ - الرمز ١١٥٩٢
مجمع الفحيص - تلفاكس: ٤٦١٠٩٣٧
لبنان: بيروت - ص.ب: ١١٣/٥٩٧٤ - الحمراء
هاتف: ٠٣/٨٨٢٢٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

إلى كلّ العاملين المخلصين من أجل إعلاء كلمة الله.

إلى كل مجاهد في سبيل الله صدع بالحق فكان مصيره حبل المشنقة أو السجن.

إلى أولئك الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم.

إلى الأخ الشهيد (أسامة) ورفاقه الأبرار أدعو الله أن يجمعني وإياهم مع الأنبياء والشهداء والصديقين وحسن أولئك رفيقا.

إلى جميع الأساتذة الأفاضل والأخوة المحبين الذين راجعوا هذا البحث وأبدوا الملاحظات عليه قبل صدوره...

إلى والديّ وإخواني الذين أتاح لي حبّهم، وعطفهم، وحنانهم، وحسن إسلامهم اطمئنان النفس، وراحة البال والصبر على كتابة هذا البحث.

إلى شريكة حياتي التي أدعو الله أن يجعلها من الداعيات المخلصات.

إلى ابنتيّ إسراء وسارة اللتين أدعو الله أن تكونا لي وجاءً من النار يوم القيامة.

أهدي هذا البحث المتواضع

سمير

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المجاهدين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن عمل لرفع راية (لا إله إلا الله محمد رسول الله) إلى يوم الدين.

وبعد...

لا بد لكل أمة أرادت النهوض أن تعمل، بالاضافة إلى إزالة كافة الأفكار الفاسدة التي طرأت عليها خلال مدة انحطاطها وحكمت فكرها وكيّفت سلوكها، أن تعمل على إزالة الغبش والتحريف الذي دُسّ في تاريخها مما جعلها تستعيب به وتتبرأ منه بدل أن تفخر وتعتز به وبشخصياته التي صنعته.

لقد عبث أعداء الإسلام بتاريخ أمتنا ورجالها العظام عبثاً كبيراً. مما يستدعي إعادة النظر في معظم ما كُتب ويكتب حول تاريخ الإسلام وسير أعلامه.

والحق أن ما حملني على كتابة هذا البحث هو المثل الذي كنت أسمعه كثيراً من بعض العجائز. والقائل «حكم قراقوش» كناية عن الحكم الظالم أو المتعسف. فبعثني الفضول إلى البحث في كتب التاريخ عن سيرة «قراقوش» المذكور في المثل رغبة في استكشاف ما فعله هذا

الشخص حتى استحق أن يُضرب به المثل بالظلم والجور. وكم كانت الصدمة كبيرة عندما اكتشفت من خلال ما قرأت أن «قراقوش» هذا ما هو إلا «الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي» الفقيه العالم والي عكا والحارس الأمين لقصر القائد صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين. عزمت حينها، بعد التوكل على الله، على إنجاز هذا البحث الصغير إنصافاً لأميرنا المفترى عليه من أمراء الإسلام وقادتها العظام الذي عبث بتاريخه أعداء الإسلام وتحذيراً للأمة من ترداد الأمثال المسيئة له.

والجدير ذكره أنّ هناك من سبقني وانبرى للدفاع عن الأمير قراقوش، ولست أول من كتب في هذا الموضوع. ولكن لم يُفرد كتابٌ في الدفاع عنه اللهم إلا كتاباً واحداً أصدره الأستاذ عبداللطيف حمزة عام ١٩٥٤ أسماه «الفاشوش في حكم قراقوش» ولكن غلبت على كتابه الناحية الأدبية أكثر من الناحية التاريخية[١].

وكان هذا البحث، الذي أدعو الله أن أكون قد أوفيت به الأمير قراقوش حقه، وأن أكون قد تمكنت من دحض ما بثه المغرضون عن سيرته من المقولات والأكاذيب التي لا تستقيم أبداً، بل تتناقض كل التناقض مع سيرة هذا البطل العظيم من أبطال الإسلام الذين سطّروا

---

(١) صدر خلال إعدادي لهذا البحث كتاب للدكتور فاروق سعد يحمل اسم (قراقوش ونوادره) وقد تضمن البحث في بدايته معلومات قيمة عن أميرنا المفترى عليه. ولكنه وللأسف وقع بما وقع فيه كل من كتب عن أميرنا إذ ضمنه بعض الافتراءات التي ألفها ابن مماتي على أنها ظاهر أدبية فريدة.

أمتنا صفحات عِزّ في تاريخها المشرق مما جعلهم محط مؤامرات أعداء الإسلام وكيدهم.

وعلينا أن ندرك أن القضية ليست قضية الأمير قراقوش فقط، ولا ضير قراقوش في قليل أو كثير أن يُنسب إليه ما هو براء منه، ولكن القضية هي قضية أمة عاث بتاريخها أعداؤها فأحالوه لوحة سوداء قاتمة بعد أن كان أزهى ما عرفته عصور الدنيا، وبفضل هذا التاريخ وبفضل رجاله العظام احتفظت أمتنا بكل فضائلها ومبادئها التي عاشت لها ومن أجلها.

كانت فتوحاتهم براً ومرحمة
كانت سياستهم عدلاً وإحسانا
لم يعرفوا الدين أوراداً ومسبحة
بل أشبعوا الدين محراباً وميدانا

وأترك للقارىء الكريم أن يرى بأمّ عينيه ما فعله أعداء الإسلام بتاريخ أميرنا المفترى عليه.

وأقول للذين حاولوا النيل من تاريخنا المجيد قولة الشاعر حيث قال:

يا ناطح الجبل العالي ليثلمه
أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

وقولة الشاعر:

كناطحٍ صخرةٍ يوماً ليوهنها
فلم يَضرها، وأوهى قرنه الوَعِلُ

وأدعو الله أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

العبد الفقير إلى الله
سمير علي عزام

تمهيد

تستوقف القارىء للتاريخ حقبة كانت من أحلك الحقبات التي مرّت على الأمة الاسلامية، لما حملته من مآسٍ ومجازر وتمزقٍ فتك في جسمها وأنهك قواها. حتى «كان يخيَّل للمتأمل في أحداث هذه (الحقبة)، أن ساعة الإسلام قد دنت، وأن زمانه قد ولّى، فقد أقبلت عليه جُموع النصرانية تهاجمه بعرض البحر الأبيض المتوسط، والتقى المسلمون مع الفرنج في حرب، هي حرب حياة أو موت، في ميدان يمتد من طرف الغار إلى أقصى الجزيرة الأندلسية إلى أقصى الموصل شمالاً، وأخذت جموع المسلمين تتراجع في اتصالٍ محزنٍ، حتى ظن أحدهم وهو، ريجنالد صاحب الكرك، أنه فاتح مكة والمدينة، وقاضٍ على الإسلام وأهله»[1] إنها حقبة الحملات الصليبية لغزو العالم الإسلامي، تلك الجيوش التي انطلقت من أوروبا إلى العالم الإسلامي تحت لواء الصليب وقيادة البابا مندفعة «تسرق وتنهب وتقتل وتشعل النيران في المدن»[2] بهدف احتلال القدس وتحريره من أيدي المسلمين كما أعلنوا.

في تلك الحقبة وفي أوجها ظهرت أسرة القائدين الأخوين نجم الدين

---

(١) صور من البطولة ونور الدين محمود للدكتور حسين مؤنس.

(٢) رجالٌ في معارك الاسلام ـ محمد شديد.

أيوب وأسد الدين شيركوه ومعهما صلاح الدين الأيوبي ولَدُ نجم الدين، فغيّروا معادلة المعركة وتوازناتها وأوقفوا تقدم جيوش الصليبيين وبدأوا بمعركة التحرير ودحر الجيوش الغازية.

وقد أنتجت هذه الأسرة مجموعة من الأبطال والنبغاء في السياسة والحرب، وكانوا خير عون لهم في المهام التي حملوها وساعدوهم في إدارة شؤون دولتهم الشاسعة، من هؤلاء الأمير بهاء الدين قراقوش، الذي لازم القائد صلاح الدين الأيوبي منذ تولّيه أمور مصر خلفاً للعرش الفاطمي وحتى وفاته. حتى يكاد لا يُذكر اسم القائد صلاح الدين إلاّ وذكر معه وزيره المخلص وحارسه الأمين الأمير بهاء الدين قراقوش.

نَسَب الأمير بهاء الدين قراقوش
وانتقاله من آسيا الوسطى إلى الشام ثم إلى مصر

كان بهاء الدين قراقوش عبداً رومياً «فرَّ من إحدى قرى آسيا الوسطى وانتقل من بلد إلى بلد حتى وصل إلى بلاد الشام وكان فيها قائدان عظيمان هما أسد الدين شيركوه الذي توسّم فيه النجابة والشجاعة، فقرّبه من نفسه، وطفق يدربه على أعمال الفروسية وينمّي فيه المواهب الحربية. والفتى يظهر لمولاه من جلائل الأفعال ما ينبىء بحسن مستقبله.

وفي دمشق تسمّى الأمير بهاء الدين باسم (بهاء الدين بن عبدالله الأسدي). فأمّا تسميته بابن عبدالله فكناية عن أنه لم يعرف له أب مسلم. وأما وصفه (بالأسدي) فنسبة إلى القائد أسد الدين شيركوه الذي اشتراه وقام على تهذيبه وتعليمه، وكان سبباً في اعتناقه الإسلام.

ولقد أنِس، رجال الجيش في دمشق من هذا الفتى الرومي شهامة، ووجدوا في أخلاقه ميلاً إلى الشدّة والصلابة، وقدرة على العمل والجد، وصبراً لا نظير له على احتمال المكاره. فأدنوه منهم، ومنحوه الرتب العسكرية التي شجعته على خدمتهم، وضربوا به المثل في الجلَد والصبر والمثابرة. وما لبث بهاء الدين قراقوش أن ارتقى في سلّم الجيش حتى وصل إلى مرتبة الإمارة. وكان على رأس هذا الجيش قائده البطل (أسد

الدين شيركوه)، وهو الذي دخل مصر في أواخر الدولة الفاطمية، وكان قصده تهدئة الأحوال بها، ثمّ انتهى الأمر على يد القائد صلاح الدين الأيوبي فيما بعد إلى إزالة هذه الدولة وإنهائها، وإقامة الدولة الأيوبية مكانها.

وعلى ذلك فالأمير بهاء الدين قراقوش كان ثالث ثلاثة أتوا إلى مصر لهذه الغاية، والاثنان الأولان هما أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي[1].

و(قراقوش) لفظ تركي، ويعني في اللغة العربية «العُقاب» وهو الطائر الأسود المعروف، وبه سمي الإنسان لشهامته وشجاعته، واللفظ مكوّن من كلمتين هما (قره) بمعنى أسود و(قوش) بمعنى طائر أو نسر.

وقد ترجم المقريزي لبهاء الدين قراقوش في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك فقال: «واسمه بهاء الدين بن عبدالله الأسدي الرومي المالكي، وأصله عبد طواش، وأعتقه أسد الدين شيركوه، وأصبح في أوائل أيام وزارة صلاح الدين حاجباً، وقد نيطت به بعد ذلك أعمال هامة...»[2].

وذكره ابن خلكان في «وفيات الأعيان» فقال: «وقيل خادم أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين، فأعتقه. ولما استقلّ صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدّة بالديار

---

(١) الفاشوش في أحكام قراقوش لابن مماتي. عبداللطيف حمزة ص ٣٠-٣١ (بتصرف).
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك / المقريزي ج١ ص ٤٥ .

المصرية، وفوض أمورها إليه واعتمد في تدبير أحوالها عليه، وكان رجلاً مسعوداً وصاحب همة عالية»[1].

وترجم له ابن كثير في (البداية والنهاية) فقال: «كان الأمير بهاء الدين قراقوش عالماً فقيهاً، إلاّ أنه كرس نفسه للخدمة الإدارية والعسكرية»[2].

وذكره ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) ج١٠ ص٣٣، وجمال الدين أبوالمحاسن يوسف بن تغري الأتابكي في كتابه (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) ج٦ ص٢٠ . وابن العماد الحنبلي في كتابه (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) ج٢ ص٣٣١ - ٣٣٢ . وصاحب حماه تاج الدين شاهنشاه بن أيوب في كتابه الملحق بكتاب النوادر السلطانية ص٣ / ٢٦ وخير الدين الزركلي في كتابه (الأعلام) ج٥ ص١٩٣ وغيرهم...

وكانت حياة الأمير بهاء الدين قراقوش حافلة بالإنجازات العظيمة والبطولات والإخلاص للإسلام والمسلمين خلال ملازمته القائد صلاح الدين الأيوبي وكذلك بعد وفاته. مما جعله محط كيد الحاسدين وأعداء الإسلام والمسلمين.

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء الزمان / شمس الدين احمد بن خلكان ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .
(٢) البداية والنهاية / ابن كثير ج١٢ ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .

القائد صلاح الدين يأمر الأمير قراقوش بحراسة القصر الفاطمي

ما أن وصلت الجيوش الإسلامية الشاميّة بقيادة القائد أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي لفك حصار الصليبيين عن القاهرة، حتى انضم إليها الجيش المصري مما دفع بالصليبيين إلى الانسحاب وفك الحصار دون قتال، وكانت مصر في تلك الآونة تحت حكم الخليفة الفاطمي.

ودخل شيركوه وابن أخيه صلاح الدين دخول القائدين المنقذين، فقربهما الخليفة الفاطمي «العاضد».

كانت أمام القائد «صلاح الدين» مهمة صعبة، جاء من الشام من أجل تحقيقها، ألا وهي تحقيق الوحدة الإسلامية بين العراق والشام ومصر. وقد واجهته قوىً ثلاثة تحالفت ضدّه وكانت تعمل للحيلولة دون تحقيقه لمهمته، الأولى وهي الأقوى: الاسماعيلية، والثانية قوى الإفرنج (الصليبيين) والثالثة تألب أمراء النوريين.

وفي عام ٥٦٧هـ ضعف أمر الخليفة الفاطمي، «العاضد» وثبّت القائد صلاح الدين قدمه بمصر، وأزال المخالفين له وصار القصر الفاطمي «يحكم فيه صلاح الدين، ونائبه قراقوش... كلهم يرجعون اليه»(١)،

(١) الكامل في التاريخ / ابن الأثير - ج١٠ ص ١٩ .

وأقام صلاح الدين على قصر الخليفة العاضد بهاء الدين قراقوش، وحصر الأسرة العبيدية في جناح خاص في القصر، وعقد مجلساً للأمراء واستشارهم في الخطبة للخليفة العباسي «المستضيء» فوافقوهم وتمّ ذلك»[١] إلى ان توفي الخليفة (العاضد)، ولم يدر ما تمّ، وبهذا انتهت الدولة الفاطمية بموت (العاضد)»[٢] وجلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصره وجميع ما فيه، فكان قد رتّب فيه قبل وفاة (العاضد) بهاء الدين قراقوش... يحفظه، فحفظ ما فيه حتى تسلّمه صلاح الدين»[٣].

وأثناء ذلك إذا بالقائد صلاح الدين يقف على مؤامرة خفية تعمل للاستيلاء على القصر ويدبرها (مؤتمن) الخلافة وبعض أصحابه من الجند بالتعاون مع الصليبيين «... وذلك أنه كُتِبَ في دار الخلافة بمصر إلى الفرنج ليقدموا إلى الديار المصرية ليخرجوا منها الجيوش الإسلامية الشامية، وكان الذي يفد بالكتاب إليهم الطواشي مؤتمن الخلافة، مقدّم العساكر بالقصر، وكان حبشياً، وأرسل الكتاب مع إنسان أمِنَ إليه، فصادفه في بعض الطريق من أنكر حاله، فحمله إلى الملك صلاح الدين فقرره، فأخرج الكتاب ففهم صلاح الدين الحال فكتمه، واستشعر الطواشي مؤتمن الدولة أن صلاح الدين قد اطلع على الأمر فلازم القصر

---

(١) التاريخ الاسلامي / محمود شاكر ج٥-٦ ص ٣٠٧ .

(٢) المرجع السابق.

(٣) النجوم الزاهرة / جمال الدين أبي المحاسن الأتابكي / ج٦ ص ٢٠ .

مدة طويلة خوفاً على نفسه، ثم عنَّ له في بعض الأيام أن خرج إلى الصيد فأرسل صلاح الدين اليه من قبض عليه وقتله وحمل رأسه إليه ثم عزل جميع الخدم الذين يلون خدمة القصر، واستناب على القصر عوضه بهاء الدين قراقوش، وأمره أن يطلعه على جميع الأمور، صغارها وكبارها»[1].

وكان مؤتمن الخلافة قد خطط للاستيلاء على ذخائر القصر الفاطمي ليأخذ منها حاجته، وليدفع ثمنها أجراً للجنود الذين يعينونه في مؤامرته. فما كان من القائد صلاح الدين إلاّ أن طلب من خادمه الأمين بهاء الدين قراقوش أن يحرس القصر الفاطمي حتى لا يصل من ذخائره شيء إلى يد (المؤتمن). «وقام (الأمير قراقوش) بهذه المهمة خير قيام، وحرس القصر الفاطمي بعين لا تنام. وعبثاً حاول المتآمرون أن يحصلوا على المال اللازم لهم في الإنفاق على هذه المؤامرة فلم يفلحوا. وكان ذلك من العوامل التي ساعدت على إحباط المؤامرة»[2]. وكان قصر الخلافة يضم من الذخائر ما لا عين رأت: كسوة فاخرة وعقوداً ثمينة وذخائر فخمة، وجواهر نفيسة من ياقوت وزمرد ومصوغات ذهبية وأوان فضية وقلائد ودرراً، فقام الأمير قراقوش بحراسة هذه الذخائر على خير وجه إلى أن أظفرَ الله القائد صلاح الدين ومكّن له في الأرض.

(١) البداية والنهاية / ابن كثير ج ١٢ ص ٢٥٨ .

(٢) الفاشوش في أحكام قراقوش لابن مماتي / عبداللطيف حمزة ص ٣٤ .

أمانته وإنجازاته

بعد أن مكَّن الله لصلاح الدين عرش مصر، انصرف إلى تحصينها لتكون حصناً منيعاً في مواجهة الصليبيين ومن يناصرهم من بقايا الفاطميين وإرهابهم إذا حاولوا العصيان ولتكون له معقلاً يعتصم به من أعدائه.

فعهد في هذا الأمر إلى وزيره وساعده الأيمن الأمير بهاء الدين قراقوش، وأمره أن يقيم البنايات اللازمة لرونق البلاد ومنعتها، وسار مطمئناً إلى الشام تاركاً الأمر في مصر إليه. نفذ الأمير بهاء الدين ما عُهد إليه بأمانة وغيرة ونشاط «فكانت الجسور المقامة لتنظيم مجرى النيل عند الفيضان قد أهمل شأنها من مدة فأتلف النيل بسبب ذلك كثيراً من البلاد والأراضي لأنه إذا زاد أغرق وإذا نقص أشرق فوجه بهاء الدين التفاتة إلى هذا الامر الذي يعد حياة مصر وحفر الترع وأقام الجسور والسدود فانتظمت الزراعة»[1].

ومن أعمال الأمير بهاء الدين قراقوش :

١- بناء قلعة الجبل:

لما رجع القائد صلاح الدين من الشام، وشاهد ما أنجزه الأمير بهاء

(١) من كتاب التاريخ لصاحب حماه تاج الدين شاهنشاه بن أيوب ملحقاً بكتاب النوادر السلطانية ص ٢٧٣ .

الدين من إنجازات خلال غيابه أظهر فيها الأمير براعة وخبرة هندسية واسعة. أمره أن يبني له قلعة تحمي مصر وترك له الخيار في اختيار مكانها وحجمها. وقد اختار الأمير بهاء الدين قطعة مرتفعة في جبل المقطّم، تشرف على القاهرة كلها، لتكون مكاناً للقلعة وباشر بعمارتها عام ٥٧٢هـ.

«وكان في ذلك المكان بناء قديم من عمل الدولة الطولونية يعرف بقصر الهوى فهدمه وأقام القلعة على أنقاضه... وجعل فيها قصراً لبلاط صلاح الدين... وأتى بحجارتها من خرائب منف والأهرام وغيرها فجاءت قلعة منيعة الجانب تُشرف على كل المدينة ولا تزال باقية لهذا العهد وتعرف بقلعة القاهرة»[١].

انظر أخي القارىء كيف وصف الرّحالة قلعة الجبل وتحصيناتها من خلال ما ذكره (محمد الكحلاوي): «قلعة صلاح الدين الأيوبي (قلعة الجبل ٥٧٢هـ / ١١٧٦م) على رأس المنشآت العسكرية التي شيّدها الأيوبيون لدفع الخطر الصليبي عن مصر والذي كان يهددها في ذلك الوقت.

وكانت عمارة القلعة ضمن مجموعة تحصينات وتدابير عسكرية اتخذها الأيوبيون لتأمين مدن مصر الاسلامية الثلاثة المثلة في الفسطاط والقطائع والقاهرة... ولذا حفلت عمارتها في الخارج بالتحصينات والأبراج والبوابات المنيعة، فيما اشتملت منشآتها الداخلية على أبنية

(١) المرجع السابق.

سلطانية رفيعة كانت محل إعجاب كل من زارها أو وصفها من رحالة ومؤرخين، وشيّد بناء القلعة على هضبة صخرية مرتفعة مما زاد في صلابتها ومنعتها، وقد ساهمت نصوص الرحالة المغاربة في وصف هذا الصرح العسكري الكبير والمنيع وأمدتنا بمعلومات لم تشر إليها المصادر التاريخية المعاصرة لبنائها، ومن أهم تلك النصوص ما وصف به الرحالة ابن جبير عمارة القلعة ومجموعة التحصينات العسكرية التي أحيطت بها، ومن الجدير بالذكر أنّ الرحالة ابن جبير قد شاهد بنفسه بعض عمليات بناء هذه القلعة، وبهرته طريقة بنائها، وكذلك حفر خندقها المنقور في الصخر، فقال: «وشاهدنا أيضاً بنيان القلعة، وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكنه، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين: مصر والقاهرة والمسخرون في هذا البناء، والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور والعظّام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور، وهو خندق ينقر بالمعاول نقراً في الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار... العلوج الأساري من الروم عددهم لا يحصى كثرة، ولا سبيل أن يمتهن في ذلك البنيان أحد سواهم» (ابن جبير ص ٥٢).

والنص السابق يشير فيه ابن جبير بأن أسرى الصليبيين قد سخّروا في خدمة بناء القلعة وحفر خنادقها ونحت صخورها...

ثم تتوالى نصوص الرحالة المغاربة في وصف قلعة الجبل، وفي كل

منها إفادة جمة عن عمارة القلعة، فمنهم من قام بتذريعها أي بحصر مساحتها كما جاء في نص الرحالة ابن سعيد المغربي بقوله (فأمر صلاح الدين) ببناء سور على مصر والقاهرة والقلعة التي على جبل المقطّم، طوله تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع القاسمي.

وبعضهم قام بتوصيف عمارة القلعة من الداخل، كما جاء في نص الرحالة التجيبي، الذي خصص وصفه للقلعة لذكر مكوناتها المعمارية الداخلية فقال: «وهذه القلعة بنيت للملك الأجل أبي المظفر يوسف ابن أيوب الملقب بصلاح الدين... وبها جامع للخطبة، وفيها الإيوان العجيب الشأن العظيم البنيان، القائم على أعمدة الرخام البديعة الشكل المعدومة النظير...».

ويتضح من النص السابق صورة القلعة في العصر المملوكي البحري وما تشتمل عليه من مسجد جامع وقصر كبير. ثم ينتقل إلى ذكر أبواب القلعة ويعدد أسماءها فيقول: «ولقلعتها أبواب منها باب القرافة... وباب السر، وباب الاسطبل، ومنه يدخل الملك».

ومن الرحالة المغاربة من جمع في وصفه للقلعة بين الحديث عن مناعة تحصينها الخارجي وأسوارها، وبين ما تشتمل عليه من أبنية داخلية، كما جاء في وصف الرحالة الوزان وصف عمارة القلعة، فقال: «وفي خارج القاهرة قرب باب زويله توجد قلعة السلطان المشيدة على رأس جبل المقطم، أسوارها شاهقة متينة، وتكتنفها قصور بديعة يعجز القول عن وصفها، وهي مفروشة بقطع من المرمر مختلفة الألوان، منسقة بكيفية

عجيبة، وسقوفها كلها مكسوة بالذهب وأحسن الألوان، ونوافذها مزدانة بالزجاج الملون مثل ما يشاهده في بعض أماكن أوروبا».

ومن الملاحظ أن نص الوزان قد ركّز على التفاصيل الفنية التي كانت تزدان بها قصور القلعة، وأنه قام بمقارنة بعض نماذجها بما هو قائم في أوروبا[1].

٢- بئر يوسف:

جعل الأمير بهاء الدين داخل القلعة بئراً عجيباً نقر في الصخر نقراً عميقاً جداً ولا يزال البئر حتى يومنا هذا ويُدعى بئر «يوسف» وذكر صاحب حماه تاج الدين شاهنشاه ابن أيوب في كتابه التاريخ أنه: «يظن بعض العامّة أنها سميت هكذا نسبة إلى يوسف الصديق ابن يعقوب والصحيح أنها نسبة إلى يوسف صلاح الدين»[2].

وقد ذكر الأستاذ علي باشا مبارك في كتابه «الخطط التوفيقية» بعض الوصف لعجائب بناء هذا البئر فقال:

«والبئر المعروفة بالحلزون الموجودة بالقلعة هي من عمل قراقوش في أيام صلاح الدين، عملت لأجل وجود الماء في داخل القلعة بواسطتها إذا حصل لها حصار من عدو. قال ابن عبدالظاهر: هذه البئر من عجائب الأبنية، تدور البقر من أعلاها، فتنقل الماء من أسفلها، ولها

---

(١) آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والاندلسيين / د. محمد الكحلاوي ص ١٥٠ - ١٥٥ .

(٢) كتاب التاريخ / صاحب حماه تاج الدين شاهنشاه ابن أيوب ملحقاً بكتاب النوادر السلطانية ص ٢٧٣ .

طريق إلى معينها في مجار. وجميع ذلك منحوت ليس فيها بناء. وقيل: إن أرضها مسامتة أرض بركة الفيل، وماؤها عذب.

وذكر القاضي ناصر الدين شافع بن علي في كتاب «عجائب البنيان» أنه ينزل إلى هذه البئر بدرج نحو ثلاثمائة درجة، والمشاهد أنه ينزل اليها بمزلقان، ولم يكن هنالك درج.

وبئر يوسف المذكور عبارة عن بئرين فوق بعضهما والماء بعد طلوعه من البئر الأسفل ينصب في البئر الثانية، والمستعمل في نقله سواقي القواديس. وارتفاع البئر الأعلى من ابتداء أرض القلعة إلى قاعها خمسون متراً وثلاثة أعشار المتر، وعمق البئر الأسفل أربعون متراً وثلاثة أعشار المتر، فيكون مجموع الارتفاع من أرض القلعة إلى قاع البئر الأسفل أربعون متراً وثلاثة أعشار المتر، فيكون مجموع الارتفاع من أرض القلعة إلى قاع البئر الأسفل تسعين متراً، وهو عبارة عن مائتين وتسع وسبعين قدماً، وجميعه نقر في الحجر.

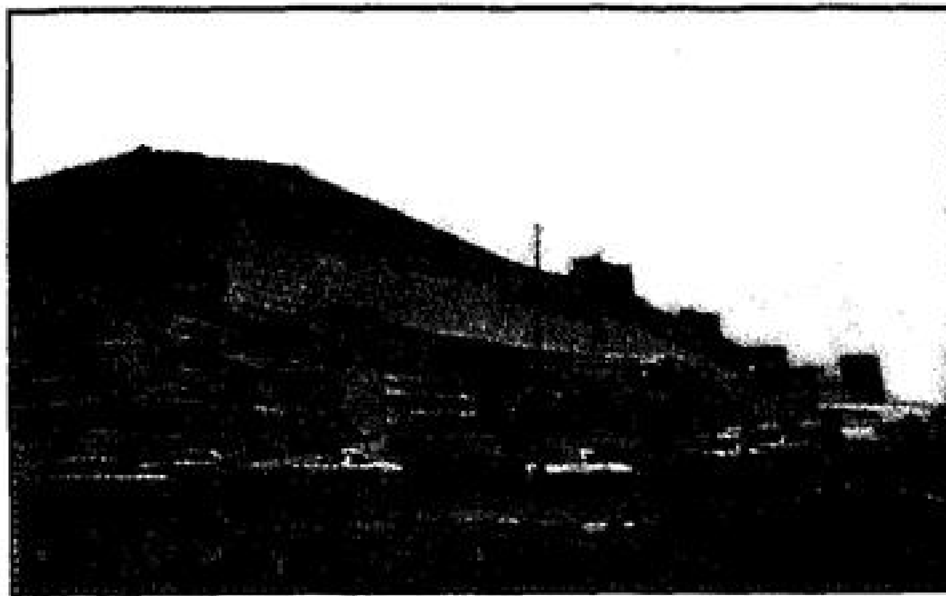
وزمن صعود القادوس بعد ملئه من ماء البئر إلى سطح الأرض أربع دقائق وثلث، والزمن الذي يمضي في سقوط حجر من أعلى إلى قاع البئر خمس ثوان، ودرجة حرارة ماء البئر مساوية لدرجة الحرارة المتوسطة السنوية في مدينة القاهرة، وأقل بأربع درجات ونصف من درجة حرارة ارتفاع قاع بئر (الأهرام). ومستوى ماء بئر يوسف تحت مستوى تحاريف النيل، وماؤها به ملوحة قليلة»[1].

(١) الخطط التوفيقية / علي باشا مبارك ج١ ص٦٩ .

ويعزو الأستاذ عبداللطيف حمزة في كتابه «الفاشوش» سبب ملوحة مائها، إلى أن الأمير قراقوش لما أراد الزيادة في مائها، فوسعها فخرجت منها عين مالحة غيرت حلاوتها[1].

٣- سور القاهرة والقلعة ومصر:

قام الأمير بهاء الدين بعد بنائه للقلعة في عام ٥٦٧هـ بمد سور القاهرة الفاطمي الشمالي إلى الغرب حتى يلتقي بميناء المقسي على النيل وموضعه الآن مسجد الفتح الجديد بميدان رمسيس، وهو نفس الموضع الذي كان يشغل مساحته جامع أولاد عنان قبل نقله، كما قام بمد سور من الشرق حتى يتصل بالسور الفاطمي الشمالي القديم الذي كان يقع شرقي حي الدرب الأحمر، وقام بمد سور ثالث من جنوب القلعة حتى يتصل بباب القرافة إلى مدينة الفسطاط بمسافة قدرها خمسة كيلومترات ونصف. «وقد كان هذا السور الذي بناه الأمير قراقوش ثالث الأسوار التي أحاطت بالقاهرة إلى



قلعة الجبل (صلاح الدين)

(١) الفاشوش في أحكام قراقوش لابن مماتي / عبداللطيف حمزة ص ٤٠ .

عهده. أما الأول فكان قد بناه القائد الرومي جوهر الصقلي. وأما الثاني فكان قد بناه الوزير لأمير الجيوش بدر الجمالي الفاطمي. وكان هذان السوران الأولان قد بنيا من اللبن، أما الثالث فقد بناه الأمير قراقوش من الحجارة»[١].

وامتد السور حول المدن الأربعة التي كونت مدينة (القاهرة) في عهده، هي: مدينة (الفسطاط) التي أنشأها الفاتح عمرو بن العاص رضي الله عنه، ومدينة (العسكر) التي أنشأها صالح بن علي العباسي، ومدينة (القاهرة) التي أنشأها جوهر الصقلي، ومدينة مصر.

ويعتبر سور القاهرة العظيم من أعظم المنشآت الحربية التي بنيت في عصره. ويعود الفضل كله في ذلك لأميرنا المفترى عليه بهاء الدين قراقوش. لقد أظهر الأمير بهاء الدين من خلال بنائه لقلعة وسور القاهرة العظيمين براعة وخبرة واسعة وهمّة عالية في بناء المنشآت الحربية، فكان القائد صلاح الدين كلما احتاج إلى عمارة أي منشأة حربية استعان على بنائها بالأمير بهاء الدين.

٤- قناطر الجيزة وقلعة المقس:

ومن العمارات والمنشآت الحربية التي شادها الأمير بهاء الدين قناطر الجيزة الواقعة تحت الجسر الموصل بين النيل والأهرام تجاه مدينة مصر،

(١) الفاشوش في أحكام قراقوش لابن مماتي / عبداللطيف حمزة ص ٤٠ .

هذا ما ذكره المقريزي في الجزء الثاني من خططه[1] وذكر أنه هدم الأهرام الصغيرة المبعثرة في الجيزة وأخذ أحجارها لبناء القناطر[2].

ومنها قلعة المقس وهي عبارة عن برج كبير بناه الأمير بهاء الدين في محل قنطرة الخلفاء بجوار الجامع في نهاية سور القاهرة عند باب البحر ومحلها اليوم المكان القائم عليه عمارتا الأوقاف وراتب باشا المجاورتان لجامع أولاد عنان في الجهة البحرية الشرقية بميدان باب الحديد[3].

هذا غيضٌ من فيض من إنجازات أميرنا المفترى عليه بهاء الدين قراقوش، فهل يستقيم ما أشيع عنه مع هذه الإنجازات العظيمة التي يعجز حتى القادة العظام أبرع المهندسين على الإتيان بجزء منها، فكيف بجميعها. إنه والله لافتئات على تاريخ أميرنا العظيم وافتراء ما بعده افتراء.

---

(١) السلوك لمعرفة دولة الملوك / المقريزي ج٢ ص ١٥١ .

(٢) راجع شذرات الذهب في أخبار من ذهب / لأبن العماد الحنبلي المجلد الأول ج٤ ص ٣٣١-٣٣٢ .

(٣) راجع النجوم الزاهرة / ج٤ ص ٣٩ (هامش).

صلاح الدين يوليّ قراقوش
على عكّا ويأمره بترميم سورها

في شهر المحرم من سنة خمس وثمانين وخمسماية (٥٨٥هـ)، سار القائد صلاح الدين إلى عكا وأقام بها يصلح أحوالها، «ورتّب فيها الأمير بهاء الدين قراقوش، وأمره بعمارتها وعمارة سورها»[١] الذي تهدّم من كثرة الهجمات الصليبية عليه. وكانت الهجمات الصليبية تتوالى على عكا بغية احتلالها نظراً لموقعها. وكان من بين أسباب تعيين القائد صلاح الدين للأمير بهاء الدين على عكا خوفه على المدينة من هجمات الصليبيين[٢] لما للأمير بهاء الدين من خبرة عسكرية واسعة خلال خدمته في الجيش الاسلامي بقيادة عمه (أسد الدين شيركوه) في دمشق. وخبرته مدة في بناء المنشآت العسكرية وتدعيمها، والتي دل عليها بناؤه للصروح والمنشآت الحربية العظيمة في القاهرة، «وكان سور عكا في الحقيقة قد تهدّم من شدة القتال وطوله، فرأى السلطان أن يترك المدينة والجيش للأمير بهاء الدين ويذهب لامتلاك الحصون الأخرى. فبقي الأمير في هذه المدينة، وبقيت معه حامية صغيرة، وعكف على إقامة ما تهدم من السور، وصبر على ذلك صبراً عظيماً.

ثم حدث بعد ذلك ما لم يكن في الحسبان، حدث أن الفرنج

---

(١) النجوم الزاهرة / جمال الدين الاتابكي، ج٦ ص ٤٢ .
(٢) وفيات الأعيان / ابن خلكان ج٧، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(الصليبيين) المقيمين بالآلاف استصرخوا إخوانهم في أوروبا فجمع الأوروبيون جموعهم، وأتوا بأمدادهم وأموالهم ورجالهم وفرسانهم، وتجهزوا لتلك الحملة الصليبية التي أتت إلى الشرق بقيادة ملوك الغرب وفيهم ريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك انجلترا، ووصلت الحملة إلى عكا.

واصطف الملوك والأمراء والجند.. ووقف في القلب ريتشارد (قلب الأسد) وبين يديه الإنجيل محمولاً ومكسواً بثوب من الأطلس، ويمسك الثوب من أطرافه أربعة من الجند. فأصبح الأمر لهذا الجيش المؤلف من جميع الدول الأوروبية في عكا».[1]، ثم ضربوا حصاراً على عكا، ودام الحصار عامين كاملين «ذاق فيهما الأمير والمسلمون معه الأمرّين.. بل ذاقوا هنالك أقسى ما عرفته المحنة الصليبية من ألم، وتحمّلوا فيها أشق ما مر بها من جهد وضيق ونصب»[2].

معركة المنجنيقات وإحراق الأبراج خارج السور:

ذكر ابن الأثير أن «الفرنج في مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً، طول كل برج منها خمس طبقات، كل طبقة مملوءة من المقاتلة وقد جمع أخشابها من الجزائر.. وغشوها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها لها، وقدموها نحو

---

(١) الفاشوش في أحكام قراقوش لابن مماتي / عبداللطيف حمزة ص ٤١ .
(٢) المرجع السابق، ص ٤٢ .

مدينة عكا من ثلاث جهات، وزحفوا بها من العشرين من ربيع الأول، فأشرفت على السور وقاتل من بها من عليه فانكشفوا وشرعوا في طم خندقها، فأشرف البلد على أن يملك عنوة وقهراً، فأرسل أهله (بقيادة الأمير قراقوش) إلى صلاح الدين إنساناً سبح في البحر، فأعلمه ما هم فيه من الضيق، وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم، فركب هو وعساكره وتقدموا إلى الفرنج، وقاتلهم من جميع جهاتهم قتلاً عظيماً دائماً يشغلهم عن مكاثرة البلد، فافترق الفرنج فرقتين فرقة تقاتل صلاح الدين وفرقة تقاتل أهل عكا، إلا أن الأمر قد خف عمّن بالبلد، ودام القتال ثمانية أيام متتابعة.. وسئم الفريقان القتال وملوا منه لملازمته ليلاً ونهاراً، والمسلمون قد تيقنوا من استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الابراج فإنهم لم يتركوا حيلة إلا عملوها، فلم يفد ذلك ولم يغن عنهم شيئاً وتابعوا رمي النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها، فأيقنوا بالبوار والهلاك، فأتاهم الله بنصر من عنده، وأذن من إحراق الأبراج.

وكان سبب ذلك أن إنساناً من أهل دمشق كان مولعا بجمع آلات النفاطين، وتحصيل عقاقير تقوى على النار، فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه، وهو يقول: هذه حالة لم أباشرها بنفسي إنما أشتهي معرفتها، وكان بعكا لأمر يريده الله، فلما رأى الأبراج قد نصبت على عكا شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية المقوية للنار بحيث لا يمنعها

شيء من الطين والخل وغيرهما، فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش، وهو متولي الأمور بعكا، والحاكم فيها، وقال له: يأمر المنجنيقي أن يرمي في المنجنيق المحاذي لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه، وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله، فازداد غيظاً بقوله، ورد عليه فقال له: قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط وغيره فلم يفلحوا، فقال له من حضر: لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا، ولا يضرنا أن نوافقه على قوله، فأجابه إلى ذلك، وأمر المنجنيقي بامتثال أمره، فرمى عدة قدور نفطاً وأدوية ليس فيها نار، فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يصيحون ويرقصون على سطح البرج، حتى علم أن الذي ألقاه قد تمكن من البرج ألقى قدرا وجعل فيها النار، فاشتعل البرج، وألقى قدراً ثانية وثالثة، فاضطرمت النار في نواحي البرج، وأعجلت من في طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص، فاحترق هو ومن فيه، وكان فيه من الزرديات والسلاح شيء كثير، وكان طمع الفرنج لما رأوا أن القدور الأولى لا تعمل يحملهم على الطمأنينة وترك السعي في الخلاص حتى عجل الله لهم النار في الدنيا قبل الآخرة، فلما احترق البرج الأول انتقل إلى الثاني - وقد هرب من فيه لخوفهم - فأحرقه وكذلك الثالث، وكان يوماً مشهوداً لم يرَ الناس مثله والمسلمون ينظرون ويفرحون، وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر، وخلاص المسلمين من القتل»[1].

(١) الكامل في التاريخ / لابن الأثير . ج١٠. ص ١٩٢-١٩٣ .

وكتب الأمير بهاء الدين «إلى السلطان صلاح الدين يعلمه أنه لم يبق من الأقوات في المدينة بعد ليلة النصف من شعبان، فلما وصل الكتاب إلى صلاح الدين أخفاه لئلا يشيع الأمر ويستغل الفرنجة الفرصة فيهاجموا المدينة، ثم جهز ثلاثة مراكب من بيروت بزي الفرنج حتى أنهم حلقوا لحاهم وشدّوا الزنانير واستصحبوا شيئا من الخنازير، فلما مروا على مراكب الفرنج اعتقدوا أنهم منهم ولم يعترضوا سبيلهم»[1].

«كل ذلك والأمير بهاء الدين يصبر ويتجلد في وسط الجند، داعياً إياهم إلى الصبر والتجلد، وكلما فكر جنده في التسليم للعدو منّاهم وأمّلهم، وقوّاهم وشدّ عزائمهم، وما زال بهم حتى رجعوا عما عزموا عليه، وعاهدوا الأمير على أن يصبروا معه حتى الموت.

وهكذا شاءت الأقدار أن تخذل هذا الأمير الصابر على محنته، المدافع عن شرفه وعقيدته. وما أن أتى المدد إلى الفرنج عبر البحر حتى هزموا المسلمين اللائذين بهذا الحصن المنيع، ودخلوا، وانهالوا:.. على أهلها نهباً وذبحاً وأسراً.. وكان الأمير قراقوش ممن أسروا يومئذ»[2].

وبقي الأمير بهاء الدين في الأسر حتى يوم عقد الصلح مع الصليبيين، فافتداه القائد صلاح الدين بعشرة آلاف دينار وكان ذلك سنة ٥٨٨هـ «يوم الثلاثاء الحادي عشر من شوال، ومثل في الخدمة السلطانية ففرح به فرحاً شديداً وكانت له حقوق كثيرة على السلطان

---

(١) البداية والنهاية / لابن كثير، ج١٢، ص ٣٣٧-٣٣٨ - وراجع كتاب النوادر السلطانية ص ١١٤ .

(٢) الفاشوش في أحكام قراقوش لابن مماتي / عبداللطيف حمزة، ص ٤٢ .

وعلى الاسلام»[1].

ومنذ يومئذ والأمير بهاء الدين إلى جانب السلطان صلاح الدين لم يفارقه لحظة واحدة حتى فارق السلطان هذه الدنيا. فبعد فكاكه من الأسر سار الأمير بهاء الدين إلى طبرية وهناك التقى بالقائد صلاح الدين وسار معه إلى دمشق ثم منها إلى مصر.

(١) النوادر السلطانية / ص ٢٢٠ .

الأمير قراقوش
بعد وفاة السلطان صلاح الدين

توفي السلطان صلاح الدين الأيوبي ليلة الأربعاء، الثامن عشر من صفر سنة تسع وثمانين وخمسماية (٥٨٩هـ) فكانت مدة حكمه خمساً وعشرين سنة، وذلك بدمشق بعد مرضٍ دام ثمانية أيام.

وبموته انفتح باب الفتن. فإنه آل الملك بعده لابنه (العزيز) على عرش مصر وكان ملكاً فاضلاً «فيه ذكاء ونخوة. وكان له جيش عظيم يتألف من فيلقين عظيمين أو فرقتين كبيرتين، هما فرقة الصلاحية (مماليك أبيه صلاح الدين)، وفرقة الأسدية (مماليك جده أسد الدين شيركوه). وكان بين الفرقتين خلاف شديد، وخصام لا ينقطع»[1].

وتولى أولاد السلطان صلاح الدين (الأفضل) أمور دمشق وما حولها و(الظاهر) أمور حلب وما حولها. وتولى الملك (العادل) أخو صلاح الدين ما بقي من الملك. وكان الشقاق قد دب بين الأمراء الأربعة».

ما يهمنا من هذا الشقاق هو الخدمة المتفانية التي أظهرها الأمير بهاء الدين قراقوش في خدمة الملك (العزيز) وحفظ دولته. فكان (العزيز) يستعين بالأمير بهاء الدين في كل كبيرة وصغيرة ويوليه أمور الملك خلال غيابه عن الدولة أسوة بوالده من قبل.

---

(١) الفاشوش في أحكام قراقوش لابن مماتي / عبداللطيف حمزة، ص ٤٤ .

حتى كانت مؤامرة دبرها له (العادل) بالتعاون مع فرقة (الأسدية) في القاهرة وكان على رأسهم آنذاك زعيمهم (أبوالهيجاء السمين)، وأترك للأستاذ عبداللطيف حمزة يروي لنا تفاصيل المؤامرة وكيف أحبطها الأمير بهاء الدين قراقوش يقول الأستاذ عبداللطيف حمزة:

«... فكّر.. الملك (العادل) في طريقة يزعج بها (العزيز) فأخذ يخوفه من (الأسدية) وطفق في الوقت نفسه يكاتب الأسدية في مصر، وكان زعيمهم آنذاك رجلاً يقال له (أبوالهيجاء السمين) وكان هذا الخبيث والياً على بيت المقدس من قبل (العزيز)، ثم عزله (العزيز) وولى مكانه غيره، فأسرها (أبوالهيجاء) في نفسه، ونوى الغدر بصاحبه!

ووصلت كتب الملك (العادل) إلى الأسدية، وبيّت الجميع سوء النية، وكان بعضهم بالقدس، وبعضهم الآخر في مصر، فكتب الأسدية الذين في خارج القاهرة إلى إخوانهم بداخلها، واتفقوا على أن يحولوا بين العزيز ودخول مصر، وذلك عند عودته إليها من حرب أخيه الملك الأفضل، ويومئذ يصبح (العزيز) نفسه بين نارين أو يختار لنفسه واحدة من ثلاث:

فإما التسليم للأسدية في مصر، وإما التسليم للأفضل في دمشق، وإما أن يستجير بعمه الملك (العادل) وهو رأس هذه المؤامرة! كل ذلك والعزيز مقيم في عسكره قرب دمشق، يرتب الجند، ويشرف على نظام الجيش، ومعه زعيم الأسدية الذي مر ذكره (أبوالهيجاء السمين)، يظهر

الخضوع لسيده من ناحية، ويتلقى كتب المؤامرة التي ترد اليه من ناحية ثانية، ووثق هذا الزعيم بنجاح المؤامرة، وأيقن بإحكام خطتها. وفجأة وعلى غير انتظار، شوهد أبوالهيجاء السمين منسحباً من الميدان، وخلفه عدد كبير من الجند، وقد استكملوا عدتهم، واستعدوا لفتنتهم، وكانوا يؤلفون الجزء الأكبر من جيش (العزيز)، ففتّ ذلك في عضد هذا الملك، وأضعف من شوكته، وأخمد من عزيمته، واضطر في صبيحة اليوم التالي إلى التفكير في النجاة بنفسه والعودة سريعاً إلى مقر حكمه»[1].

كل هذا والأمير بهاء الدين قراقوش يتولى أمور مصر خلال غياب (العزيز) ويحمي عرش مصر حتى عودته من دمشق.

«... علم (الأمير بهاء الدين قراقوش) بسر المؤامرة، واستطاع أن يقرأ بعض الكتب التي وردت إلى الأسدية من إخوانهم خارج القاهرة... وراح بنفسه إلى الأسدية يخوفهم ويهددهم، ويحذرهم عاقبة غدرهم وخيانتهم، ويصور لهم دناءة الفعلة التي يقومون عليها. وما زال بهم حتى أخمد نشاطهم، وأطفأ جذوتهم، وأحبط حيلهم، وأحاط بهم من كل جانب، وفوت عليهم كل قصد. ثم ما كاد (العزيز) يصل إلى القاهرة حتى كان قراقوش قد انتهى من عمله، ومهد له طريق الدخول.

ودخل (العزيز) مصر واستقبله أهلها بسرور عظيم، ثم جلس اليه

---

(١) الفاشوش في أحكام قراقوش لابن مماتي / عبداللطيف حمزة، ص ٤٦ - ٤٧ .

الأمير بهاء الدين قراقوش وأخبره بخبر المكيدة التي دبرت، والخطة التي وضعت، والقصد الذي قصد اليه الأسدية في القاهرة. فشكر له الملك الصنيع، وقدر له الجميل»[١].

«هكذا أخلص الأمير بهاء الدين قراقوش للملك العزيز، كما أخلص من قبل الإخلاص كله لوالده السلطان صلاح الدين فحافظ على العرش في أثناء غيبة (العزيز) عن مصر، وأضاف بذلك يداً جديدة من أياديه على هذه الدولة الأيوبية التي شارك في بنائها وحياطتها من شرور أعدائها، وأبلى في ذلك بلاء قلّ أن يكون له نظير...

الحق أن هذا الأمير كان كنزاً من كنوز هذه الدولة مَنّ الله به عليها. وادخره لها، وأعانه على إعلاء شأنها وبلوغ غايتها»[٢].

---

(١) الفاشوش في أحكام قراقوش لابن مماتي / عبداللطيف حمزة، ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٩ .

الأمير قراقوش
وصياً على عرش مصر

بعد وفاة الملك «العزيز» آل عرش مصر إلى «ابنه الملك (المنصور) ناصر الدين محمد بعهدٍ منه، كان عمر (المنصور) تسع سنين وأشهر، فقام بأمور الدولة بهاء الدين قراقوش الأسدي»[1]. كما أوصى (العزيز) بأن يكون الأمير بهاء الدين مدبر أمره ووصياً على عرشه حتى يشتد ساعده ويبلغ سن الحكم.

وقام الأمير بهاء الدين بالوصاية خير قيام ورعى شؤون المملكة بعناية. ولكن هذا الأمر لم يرض الملك (الأفضل) في دمشق فسار اليها ودخلها دون إراقة دماء، وكل الأمر عائدٌ لحكمة الأمير بهاء الدين الذي لم ير بدأً من الخضوع للأمر الواقع وتجنيب المسلمين حرباً كان سيراق بها دمٌ كثير. فتنحى عن ملك مصر وتخلى عن الوصاية للملك الأفضل وكان حسن الخلق عادلاً.

وتنحى الأمير بهاء الدين عن التدخل في شؤون الحكم وكان قد بلغ من الكبر حتى ضعفت صحته وتهدمت. حتى وافته المنية سنة سبع وتسعين وخمسمئة للهجرة (٥٩٧هـ) بالقاهرة، و«دفن قرب البئر والحوض الذي أنشأهما على شفير الخندق في تربته المعروفة به بسفح المقطم»[2].

---

(١) الخطط التوفيقية / ج١ ص ٧٣ .

(٢) وفيات الأعيان / ابن خلكان ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

فحزن عليه الناس في مصر حزناً شديداً وسألوا له الرحمة والقبول.

وهكذا طوى الموت صفحة رجل من رجالات الإسلام العظام الذين سطّروا للإسلام والمسلمين صفحات عزّ من تاريخه. فكان نِعْم القائد الشجاع الجسور. وفيه قال عماد الدين الأصفهاني في كتاب (الوفيات) سنة ٥٩٧هـ: «وفيها توفي الأمير بهاء الدين قراقوش وهو من القدماء الكرماء وشيوخ الدولة الكبراء. أمير الأسدية ومقدمها، وكريمها ومكرمها. ولم أر غيره خصياً لم تقاومه الفحول، ولم يؤثر في عظيم مآثره المحول» ثم ما كان بهاء الدين إلاّ أهلاً لتقدير الصليبيين أنفسهم، فقد وصفوا شخصيته في كتبهم بقولهم:

«إنها شخصية رجل محارب، له روح غريبة أدهشت الصليبيين، وأثارت إعجابهم الشديد بشخصية صاحبها ومهارته وقدرته وجلَدَه وعزيمته، حتى نظروا إليه على أنه جندي وقديس في وقت معاً».[١]

رحمك الله أيها الأمير البطل وجزاك الله خيراً عن المسلمين.

---

(١) الفاشوش في أحكام قراقوش لابن مماتي / عبداللطيف حمزة، ص ٧٥ .

اصل المثل القائل (حُكم قراقوش) ومنشاه

ذكر الدكتور ماجد عرسان الكيلاني في كتابه «هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس» ص (٣٠٣ - ٣٠٤):

«إن سياسة الأمير بهاء الدين قراقوش في القاهرة كانت حكيمة وحازمة في إزالة الفاطميين وتضييق الخناق على بقاياهم، لذلك لم يجدوا سبيلاً لمحاربته إلاّ بالإشاعات وتشويه السمعة، حيث وضعوا عنه كتاباً أسموه «الفاشوش في أحكام قراقوش»، وهي الإشاعات التي يرددها معاصرونا بغباء».

وذكر ابن خلكان أن الناس ينسبون للأمير بهاء الدين قراقوش «أحكاماً عجيبة في ولايته نيابة مصر عن صلاح الدين، حتى أن الأسعد بن مماتي له فيه كتاب سمّاه «الفاشوش في أحكام قراقوش» وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه والظاهر أنها موضوعة، فإن صلاح الدين كان يعتمد في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها اليه»[١].

لقد كان كتاب الأسعد بن مماتي «الفاشوش في حكم قراقوش»[٢] هو أصل المثل الذي انتشر في كل الأمصار من تاريخ صدوره حتى تاريخنا المعاصر والقائل «حكم قراقوش» كناية عن الظلم والجبروت، أو

(١) النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٢) توجد نسخة من الكتاب في دار الكتب المصرية. وقد ذكر الاستاذ عبداللطيف حمزة ان للكتاب نسخاً أخرى في دور الكتب المختلفة في العالم./

العته والسفه والتخبط المعيب في إصدار الأحكام الجائرة، والأقضية الفاسدة والأوامر الشاذة المضحكة ونحو ذلك.

كتاب «الفاشوش في حكم قراقوش»:

هو كتاب صغير الحجم، تضمنّ حكايات ونوادر ساخرة كتبت باللغة العامية، تنال من الأمير بهاء الدين قراقوش وتظهره على عكس مظهره الحقيقي، وتجعل منه شخصية فكاهية على نمط شخصية «جحا» في التراث الشعبي الفكاهي. وقد أراد مؤلفه ابن مماتي النيل من الأمير بهاء الدين قراقوش من خلال كتابته هذا الكتاب وتوجيهه للسلطان صلاح الدين الأيوبي كما ادّعى في مقدمته حيث قال: «إنني لما رأيتُ عقل بهاء الدين قراقوش، محزمة فاشوش، قد أتلفت الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدي بعالم، ولا يعرف



الحكاية الثانية

جاء الى قراقوش ثلاثة رجال : احدهم اجرود وليس له لحية ولا شارب . والآخران كبيرا اللحيتين . وقد تعدى الاجرود على كل منهما ونتف ذقنه من جذورها . فذهب الرجلان الى قراقوش وقالا له :

« يا مولانا بهاء الدين ، خذلنا حقنا من هذا الاجرود ، فقد نتف ذقوننا وخرق ثيابنا . »

فنظر قراقوش الى الاجرود وقال لصاحبيه :

« ويلكم نتفتم ذقن هذا الصبي وجئتم تشكونه الي. ودوهما الى الحبس ، ولا تخرجوهما حتى تطلع ذقن هذا الصبي » !

عن كتاب (الفاشوش لابن مماتي)

المظلوم من الظالم.

الشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدي لمن صدق، ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يردّ كلمته، ويشتاط اشتياط الشيطان، ويحكم حكماً ما أنزل الله به من سلطان.. صنفتُ هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين»:



الحكاية الخامسة

وقيل ان غلاما لقراقوش كان يشتغل عنده (ركابدار) اي صاحب الركاب ، وان هذا الغلام قتل نفسا . فقال : «اشنقوه !»

فقيل له : « انه حداد ، وينعل لك الفرس ، فان شنقته خسرته ولم تجد غيره » . فنظر قراقوش ناحية بابه ، فوجد رجلا قفاصا (أي صانع الاقفاص) ، فقال : « ليس لنا بهذا القفاص حاجة ! »

فلما اتوه به قال : « اشنقوا القفاص . وسيبوا الركابدار الحداد لكي ينعل لنا الفرس ! »

- ١٢ -

عن كتاب (الفاشوش لابن مماتي)

الأسعد بن مماتي:

من هو مؤلف كتاب «الفاشوش في حكم قراقوش»:

«هو القاضي الأسعد أبوالمكارم أسعد بن سعيد مهذب بن مينا بن زكرياء بن أبي مليح مماتي المصري الكاتب الشاعر، كان ناظر الدواوين بالديار المصرية توفي سنة ٦٠٦هـ»[1].

وذكر الأستاذ عبداللطيف حمزة نبذة مفصلة عن حياة ابن مماتي فقال[2]:

(١) راجع ابن خلكان وشذرات الذهب.

(٢) الفاشوش في حكم قراقوش لابن مماتي - عبداللطيف حمزة ص ٥٧ .

«هو الأسعد أبوالمكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد بن مينا بن زكريا بن أبي المليح ممّاتي بتشديد الميم الثانية. انحدر من أسرة قبطية من أعرق أسر الصعيد. وكان ميلاده سنة ٥٤٤ للهجرة بمدينة أسيوط...

وكان ابن أبي المليح جد الكاتب... رجلاً بارزاً من رجالات مصر في العصر الفاطمي. وكان يعتمد عليه في كثير من الأمور التي تهم الدولة الفاطمية. وكان يتولى كثيراً من أعمال الدواوين في ذلك الحين. وكان معروفاً بثرائه وقلة اكتراثه بالمال...

وكان (المهذب والد الكاتب) يلقب (بالخطير) كاتب ديوان الجيش بمصر في أواخر أيام الفاطميين وأوائل أيام بني أيوب، وعظمت منزلته في الديوان حتى حسده أصحابه، وحقد عليه الكتّاب جميعاً، واتفقوا فيما بينهم على أن يشوا به عند صلاح الدين، أو عند عمّه أسد الدين شيركوه... فخاف المهذب على نفسه تأثير هذه المؤامرة، وفكّر في الأمر ملياً، فلم يجد خيراً له من أن يُعلن إسلامه هو وأولاده، وأن يكون ذلك على يد صلاح الدين نفسه فذهب إليه وعرض إسلامه وإسلام أولاده عليه. فقبلهم صلاح الدين وأحسن إليهم وزاد في وظائفهم وولايتهم... وما لبث المهذب بعد ذلك أن أصبح والياً على ديوان الاقطاعات فضلاً عن ديوان الجيش.

كل ذلك أوغر صدور الكتاب والشعراء في الديوان، فزاد حقدهم عليه، وضاقت حيلهم فيه، ولم يسعهم إلاّ أن يطلقوا ألسنتهم في الذي

جدّ عليه وهو الإسلام، فاتخذوا من إسلامه مادة لسخريتهم به والحطّ من منزلته. ومن ذلك ما قاله أحد الشعراء واسمه (ابن الذروى):

لـم يُسْـلِـم الخـطـ ... ـير لرغبة في دين أحمد
بل ظنّ أن مِحـالـه[1] ... يبقى له الديوان سرمد
والآن وقد صرفوه عنـ ... ـه فدينه (العَودُ أحمدُ)

وقد خلف (الأسعد بن مماتي) أباه المهذب على ديوان الجيش، وبقي رئيساً له مدة طويلة، ثم أضيف إليه في أيام صلاح الدين وأيام العزيز ديوان المال، وهو أجلّ ديوان من دواوين مصر في ذلك العصر، وبقي رئيساً له مدة كبيرة أيضاً... واشتهر الأسعد في زمانه بالأدب وأصبح من كبار الأدباء في مصر الأيوبية».

وفي سنة ٥٩٦هـ تولّى الملك العادل مصر وكان وزيره عبدالله بن علي بن شكر. وبدأت العلاقات حسنة بين ابن شكر والأسعد بن مماتي ولكن لم يلبث أن انقلب عليه وضايقه ثم نحّاه عن منصبه وسجنه. وفي سنة ٦٠٤هـ. أفلح الأسعد بن مماتي في الفرار من مصر إلى حلب وعاش فيها إلى ان توفي سنة ٦٠٦هـ.

ألّف العديد من الكتب ومنها «سيرة صلاح الدين الأيوبي» وله شعر أكثر فيه وصف الثلج الذي بهره مشهده وهو يهطل ثم وهو يغمر كل

(١) المحال بكسر الميم الكيد والمكر.

شيء وذلك في أثناء إقامته في حلب. نظم كليلة ودمنة شعراً. من مؤلفاته كتاب (سرّ الشعر) وكتاب (علم النثر)، كتاب (الشيء ب الشيء يُذكر)، كتاب (قرقرة الدجاج في ألفاظ الحجاج) المقصود الشاعر أبوعبدالله الحسين بن حمد المعروف بابن الحجاج توفي ٣٩١هـ، وكتاب (لطائف الذخيرة) لابن بسام، وكتاب (كرم النجار في حفظ الجار)، وكتاب (ترجي العتاب)، وكتاب (قوانين الدواوين)، وكتاب (الفاشوش في أحكام قراقوش)»[1].

من خلال هذه السيرة الموجزة لمؤلف «الفاشوش» يمكننا أن نستنتج الكثير من دوافع تأليف الكتاب أو صحة نسبته للأسعد بن مماتي. وهذا ما سنتطرق اليه في الفصل التالي.

ما مدى صحة نسبة كتاب «الفاشوش» للأسعد بن مماتي:

بعد كل ما قرأناه، إن القارىء ليعجب كل العجب من أمور عديدة حول كتاب «الفاشوش». وتدور في ذهنه تساؤلات عدّة سنحاول استنتاج بعضها والإجابة على بعضها الآخر.

ذهب ابن خلكان إلى أن كتاب «الفاشوش» كله موضوع. وذلك لأن الأسعد بن مماتي كان مقرباً بل جزءً من البلاط الأيوبي. فكيف يستنكر ويشنّع على النظام الذي هو جزء منه.

(١) قراقوش ونوادره - د. فاروق سعد ص ٢٨ .

والأمر الثاني، لو أنّ كتاب «الفاشوش» وقع في يد السلطان صلاح الدين كما ادّعى كاتب الكتاب أنه قد وجّهه إلى السلطان صلاح الدين علّه يريح المسلمين من الأمير قراقوش. فأين هي ردّة فعل السلطان صلاح الدين إزاء كتاب يمسّ أحد قادته الأبطال وأركان دولته العظام وساعده الأيمن في الحروب ضد الصليبيين وأمين قصره خلال أسفاره؟ وبالأخص أن الكتاب ظهر في فترة «شهدت عظمة الأمير بهاء الدين، وفيها شارك هذا الرجل - كما رأينا - في هدم دولة وإقامة أخرى. فقد كان في الجيش الذي أتى به أسد الدين شيركوه إلى مصر بقصد تهدئة الأحوال بها في الظاهر، والتمهيد لإزالة الدولة الفاطمية نفسها في الباطن. ثم كان حارساً على القصر الفاطمي وحده بعد تمام الأمر لصلاح الدين، بل كان حارساً للدولة الجديدة التي أقامها ذلك السلطان العظيم - صانها من المؤامرات، وحماها من المكائد والدسائس، وبذل في سبيل صيانتها وحمايتها كل ما يستطيع.

وكان مرة ينوب عن السلطان صلاح الدين في حكم مصر، وأخرى يعمل له في بناء القلاع والحصون، وثالثة يأتمر بأمره في بناء السور، ورابعة يبني له سور عكا، وخامسة يبقى مأسوراً محصوراً في المدينة التي شاهدت أسوأ أيام حياته حتى منّ الله عليه بالنجاة والعودة إلى صلاح الدين الذي فرح فرحاً عظيماً بمقدمه، ولم يدّخر وسعاً في تقديره الثناء على خُلقه وشجاعته[1].

(١) الفاشوش في أحكام قراقوش لابن مماتي - عبداللطيف حمزة ص ٦٩ .

والأمر الثالث الذي يطرح نفسه هو مدى جهل الأسعد بن مماتي بشخص الأمير بهاء الدين قراقوش وصفاته الخُلقية وبالأخص أنه كان خصياً. وهذا مما كان لا يخفى على أحدٍ في حينها حتى يضمّن كتابه «الفاشوش» قصصاً عن الأمير بهاء الدين مع إحدى جواري القصر الأيوبي. مما يدل دلالة قاطعة على أنّ من كتب كتاب «الفاشوش» بعيدٌ كل البعد عن الأمير بهاء الدين قراقوش وعن القصر الأيوبي!!!

ومن الأمور الأخرى التي تدعونا للتشكيك في نسبة كتاب «الفاشوش» للأسعد وجود مخطوطة للكتاب في المكتبة الوطنية في باريس نسبت خطأ إلى الأسعد بن مماتي، فقد اطلع عليها المؤلف وتبين له أنه «ذكر في صفحة عنوان المخطوطة» «كتاب الفاشوش في أحكام قراقوش تأليف الشيخ جلال الدين السيوطي» وذكر في مطلع الكتاب أنَ السيوطي وضعه جواباً على سؤال طرح عليه وهو يعطي دروسه في الجامع الطولوني في القاهرة في أواخر المحرم سنة تسع وتسعين وثمانماية، وبذلك يمكن الجزم والحسم بأن لا علاقة لابن مماتي بها»[1].

ويذكر الدكتور فاروق سعد أنه «قد لاحظ سوبرنهايم في مادة (بهاء الدين قراقوش) في دائرة المعارف الإسلامية أن إحدى مخطوطتي القاهرة تعود إلى زمن متأخر (سنة ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م)، وفي النوادر

(١) قراقوش ونوادره - د. فاروق سعد ص ٤٥ .

المدرجة فيها يبدو قراقوش سلطاناً تكثر فيه النوادر، ويكثر عدد أحكامه، وأن محرّر هذه النوادر هو عبدالسلام اللقاني»[١].

ويصل الدكتور فاروق سعد إلى استنتاج مفاده أنه «على كلٍّ إذا اعتبرنا أن أحدث مخطوطات نوادر قراقوش مخطوطة اللقاني التي تعود إلى سنة ١٢٠٠هـ كما ذكرنا آنفاً، فإن صيغة مخطوطة السيوطي للنوادر لا بد أن تعود إلى حياته، (:٨٤٩هـ / ١٤٤٥م ت: ٩١١هـ / ١٥٠٥م) طالما أنه تلاها على تلاميذه، ولا ريب أن صيغة ابن مماتي (:٥٤٤هـ / ١١٤٩م – ت: ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) لهذه النوادر هي المصدر ولا سيما أنه الوحيد المعاصر لبهاء الدين قراقوش (ت: ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) المتوفي قبله بتسع سنوات، ولعله قد وضع كتابه في السنوات التسع التي عاشها ابن مماتي بعد وفاته»[٢].

وهنا يردُ السؤال التالي: إذا كان الكتاب وضعه ابن مماتي في السنوات الأخيرة من حياة الأمير بهاء الدين قراقوش أو خلال السنوات التسع التي عاشها ابن مماتي بعد وفاته، وفي كلا الخيارين ما كان السلطان صلاح الدين ليريح المسلمين من الأمير قراقوش؟؟

فإننا هنا نكاد نجزم بأن الكتاب لم يوجَّه للسلطان صلاح الدين في حياته، وأنه كتب بعد وفاته، إن لم يكن بعد وفاة السلطان صلاح الدين والأمير بهاء الدين قراقوش معاً.

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٨ .

والذي يزيد الأمر غرابة أنّ كل من كتب عن الأسعد بن مماتي، ذكر بأنه كاتبٌ جادٌّ. فله كتاب في الدواوين سماه «قوانين الدواوين» يعتبر وثيقة من أهم وثائق العصر الأيوبي.

الدوافع وراء كتابة «الفاشوش»

للوقوف على الدوافع وراء كتابة «الفاشوش في أحكام قراقوش» نحن أمام احتمالين اثنين.

الاحتمال الأول هو: في حال صحة نسبة كتاب «الفاشوش» للأسعد ابن مماتي والاحتمال الثاني هو في حال عدم صحة نسبته وتحت كلا الحالتين هنالك احتمالات عدّة وراء كتابة «الفاشوش» ونشره نستعرضها بالتفصيل:

١ـ خصومة شخصية يتداخل فيها الحسد والغيرة والمنفعة الشخصية.

٢ـ صراع مذهبي ومنافسة سياسية وهذا الاحتمال الذي نرجحه.

أولاً: في حال صحّة نسبة كتاب «الفاشوش» للأسعد ابن مماتي:
ويندرج تحت هذا الاحتمال عدّة دوافع نبرز منها:

صراع مذهبي ومنافسة سياسية:

لا يمكننا في أي ظرف من الظروف أن نتجاهل أن الأسعد بن مماتي من أصل قبطي ومن عائلة قبطية عريقة خدمت جميعها العرش الفاطمي وعاشت في كنفه ومن خيراته. وإلى أي مدى يمكننا تفسير ما وصفه الأبستاذ عبداللطيف حمزة بحملات بعض (المغرضين والحاسدين) الذين

حاولوا النيل من والد الأسعد بن مماتي فيما طرأ عليه خلال عهد السلطان صلاح الدين ألا وهو إشهاره وأبنائه إسلامهم؟ كل هذه التساؤلات تتوارد إلى ذهننا في سبيل ايجاد تفسير للافتراءات التي تضمنها كتاب «الفاشوش»، والتي خالفت حقيقة الأمير بهاء الدين، مما يمسُّ ليس فقط ا لأمير بهاء الدين بل حتى السلطان صلاح الدين نفسه، والدولة الأيوبية برمتها. مما يدعونا للجزم بأن وراء هذا الكتاب حملة دعائية وسياسية دبّرت للنيل من السلطان صلاح الدين والدولة الأيوبية في أوج انتصاراتها، وأريد بنشره الإساءة لهذه الدولة التي كان لها دوراً بارزاً في القضاء على الدولة الفاطمية ودحر الصليبيين الغزاة. ومما يمكننا الجزم به أيضاً أنّ كتابة الكتاب بصيغة رسالة (نصيحة) إلى السلطان صلاح الدين وباللغة العامية يدلُ عن دهاء كاتبها وسوء طويته هذا إذا علمنا أن جميع من بحث في الموضوع وصل إلى قناعة تامة وحاسمة أنّ الكتاب لم يصل ليد السلطان صلاح الدين في حياته، وإنما كان الهدف من صياغته بهذه الطريقة وهذا الأسلوب هو إيهام قارئها أنها كتبت للنُصح ومن باب الحرص على السلطان صلاح الدين والدولة الأيوبية لتسهيل إقناع القارىء بما حوته من افتراءات وأكاذيب وسخريات، وهنا لا يسعنا وللأسف الشديد سوى أن نعترف بأن كاتب كتاب «الفاشوش» قد حقق بالفعل مأربه، ويشهد على ذلك سرعة انتشار ما تضمنه الكتاب من أكاذيب وترددها على ألسنة الناس على أنها حقائق،

أن الإمام السيوطي تأثر بها ورواها لطلابه - كما ظهر في خطوطة باريس - مع اعترافه بأن الأمير بهاء الدين قراقوش كان جلاً صالحاً غلب عليه الانقياد إلى الخير»[1].

ذكر الاستاذ عبداللطيف حمزة أن المستشرق الفارسي كازانوفا الذي رس كتاب «الفاشوش» ذهب إلى أن ابن مماتي كان يسعى إلى هز الثقة الأمير بهاء الدين وهو من قادة السلطان صلاح الدين البارزين مساعديه الأمناء الذين استعان بهم في الملمات، وبالتالي تأليب الناس تحريضهم على الدولة الأيوبية (السُنّية) التي أنهت بمجيئها الحكم لفاطمي (الشيعي). وما الكتاب إلاّ وسيلة من وسائل الدعاية السياسية لمغرضة بين المذاهب.

ثانياً: في حال عدم صحة نسبة كتاب «الفاشوش» للأسعد بن مماتي، ان هناك جهة مغرضة وضعت الكتاب ونسبته لابن مماتي، كما نسبت النسخة الثانية للسيوطي. وهذا ما شكك فيه الدكتور فاروق سعد في

---

(١) ذكر الدكتور فاروق سعد في كتابه «قراقوش ونوادره» ص ٦٩ .
ص مقدمة المخطوطة الموجودة في باريس حيث يقول السيوطي في توطئة المخطوطة: «وبعد، فقد سئلت في درس الجامع الطولوني في اواخر المحرم سنة تسع وتسعين وثمانمائة عن قراقوش وهل له اصل في التاريخ أولاً. وهل ما يعزى اليه من الحكايات المضحكة لها أصل أم لا؟ فجمعت فيه هذه الاوراق في تلك الليلة وحررتها في ساعات قليلة، وكذا وجود..
نقل الناصر محمد بن تغري بردي في كتاب «النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة» عند ذكر السلطان صلاح لدين بن ايوب ما قرأته، وكان وزيره الصاحب بهاء الدين قراقوش صاحب الحارة المعروفة بسويقة الصاحب القديمة في الجامع المحكي، وكان رجلاً صالحاً غلب عليه الانقياد إلى الخير. وكان السلطان يعلم منه عدم الفطنة والنباهة. وكان اذا سافر يفوض اليه أمرها مع مشاركة بعض اولاده لعدم استيثاقه منه بالانفراد في ذلك. لكنه في عام احدى وستين وخمسماية حكمها منفرداً نحو شهر في غير مشاركة بمقتضى وفاة ولي العهد المشارك له، ووضعت عليه الحكايات المضحكة»، ثم يورد السيوطي بعض هذه الحكايات في كتابه.

كتابه «قراقوش ونوادره» رغم تضعيفنا لهذا الاحتمال لعوامل عدة. وقد تطرقنا لهذه العوامل سابقاً ولدوافع ابن مماتي لكتابة كتابه «الفاشوش».

دور الإعلام في تشويه الحقائق

«الإعلام الذي يجعل من الظالم عظيماً، ومن الخائن بطلاً، ومن المنافق زعيماً، ومن الكذوب سياسياً»

إن الحرب الإعلامية في معركة الحضارة والوجود من أكثر الحروب فتكاً وتأثيراً ومن يكسبها يكون قد كسب نصف المعركة. لقد استخدم أعداء الإسلام ومنذ ظهور الإسلام ودعوته هذا السلاح الفتاك خير استخدام حتى أضحى من أكثر الأدوات والمؤسسات التي ينفقون عليها الغالي والنفيس لما حققته المؤسسات الإعلامية من مكاسب لهم عجزت عن تحقيقه أطنان من القنابل والأسلحة الفتّاكة، وأكثر ما تجلّى هذا الأمر في عصرنا الحاضر هو ظهور الأقمار الصناعية وما تبثه من سموم في مجتمعاتنا عجزوا عن بثها لقرون، وكذلك ظهور الإنترنت الذي ألغى جميع الحواجز والرقابة أياً كانت.

إن ما يسمى بالـ «البروبغندا» أو باللغة العربية «الإشاعة» هي إحدى وسائل الاعلام في تشويه الحقائق وذر الرماد في العيون، وقد اتبع الكفر «الإشاعة» في مواجهة الاسلام منذ نعومة أظفاره، فقد اتبعوه ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم في «حادثة الإفك» وكانت حرب الإشاعة أول وسيلة فكّروا بها لمواجهة رسول الله في أول اجتماع للكفار في مكة عندما اجتمعوا في دار الوليد بن المغيرة وقد حضر

الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد خضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً.

فقالوا نقول كاهن... نقول شاعر.. نقول ساحر.. وهكذا حتى استقر رأيهم أن يشيعوا عنه صلى الله عليه وسلم أنه ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وزوجه، وبين الأخ وأخيه.

وهكذا ظل الكفر يتبع الأساليب الإعلامية لتشويه الحقائق حتى قَلَبَ مفاهيم المسلمين وألبس عليهم دينهم وتاريخهم حتى أضحينا لا نعلم هل كان هارون الرشيد حاكماً مسلماً عادلاً أم زير نساء، وهل كان السلطان عبدالحميد الثاني خليفة للمسلمين والدولة العثمانية دولة اسلامية أم دولة استعمارية بينما فرنسا وبريطانيا دول جاءت لتنقذنا من نير الاستعمار (التركي)،والمجاهدون الذين ثاروا ضد الكفر وأذنابه (متطرفون) و(أصوليون) و(إرهابيون)... وهكذا على طول التاريخ الاسلامي القديم والحديث.[1]

إن ما حصل للأمير بهاء الدين قراقوش ليس غريباً وما هو إلا ما أسميناه حرب «الإشاعة» التي اتبعها الأسعد بن مماتي للاساءة لأميرنا

---

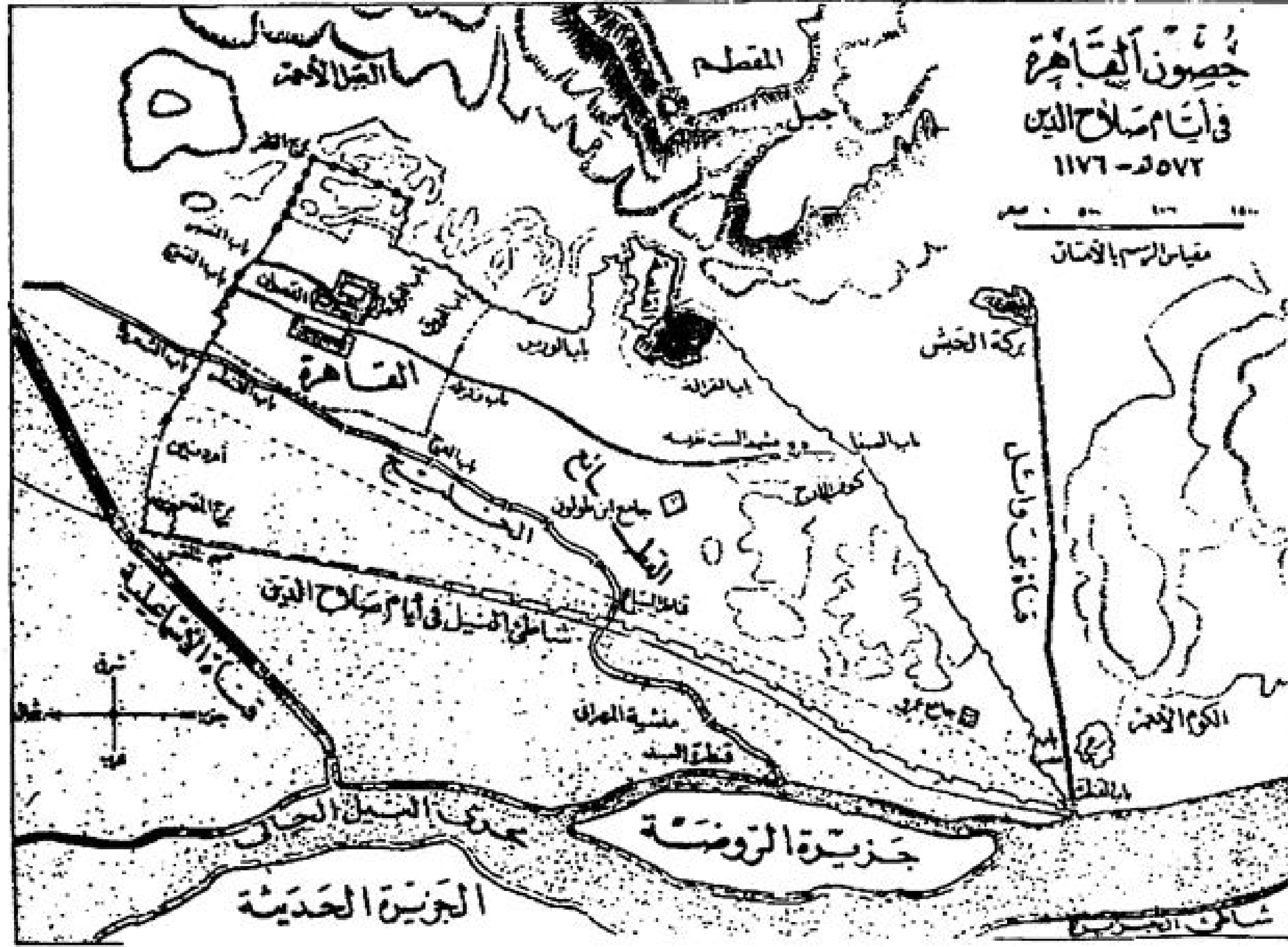
(١) كان من اوائل الكتب التي تمت بطبعها ونشرها كتاباً قيماً اسمه «التلويث الفكري والاعلامي في العالم الاسلامي» لمؤلفه عايد الشعراوي عام ١٩٨٩م - ١٤٠٩هـ، وقد أوفى المؤلف موضوع الإعلام في مواجهة الاسلام حقه. ومن ابرز ما تطرق اليه المؤلف هو إحصاء لجميع المجلات والصحف التي صدرت في العالم الاسلامي من عام ١٨٦٦م إلى عام ١٩٥٣م وكيف ان جميع مؤسسيها نصارى من لبنان. ص ٥٩ .

المفترى عليه من خلال إصدار كتابه (الفاشوش).

وقد أراد ابن مماتي أن يجعل من شخصية الأمير قراقوش «علماً لعدد كبير من الحكايات التي تعبر عن الكبت السياسي في المجتمع الذي يعيش تحت وطأة حكم جائر غاشم لا يستند إلى عقل أو عدل.. وتبقى موصولة الحياة وكلما امتد بها الزمان زادت شهرتها بزيادة المرويات عنها»[1] وقد نجح ابن مماتي نجاحاً باهراً في الإساءة للأمير بهاء الدين على مرّ العصور حتى أن الإمام السيوطي «في حال صحة ما ورد عنه من أقوال عن الأمير بهاء الدين» وقع في شَرَك ترديد الإشاعة عن غير علم بزيفها وافترائها.

والحمد لله رب العالمين

(١) د. محمد رجب: جحا العربي، عالم المعرفة، الكويت، اكتوبر ١٩٧٨ ص ٢١٤ .


حصون القاهرة
في أيام صلاح الدين
٥٧٢هـ - ١١٧٦
مقياس الرسم بالأمتار
المقطم
جبل
الجبل الأحمر
القاهرة
بركة الحبش
جامع ابن طولون
جامع عمرو
الكوم الأحمر
شاطئ النيل في أيام صلاح الدين
مجرى النيل الحالي
جزيرة الروضة
الجزيرة الحديثة
منشية المهراني

المراجـــع

١- البداية والنهاية - ابن كثير ج١٢ وج١٣ مكتبة المعارف - بيروت.

٢- وفيات الأعيان - ابن خلكان ج ٧ .

٣- الكامل في التاريخ - ابن الأثير ج١٠ ط دار الكتب العلمية - بيروت.

٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ابن العماد الحنبلي ج٤ وج٦ ط دار الكتب العلمية - بيروت.

٥- الفاشوش في حكم قراقوش لابن مماتي - عبداللطيف حمزة - ط أخبار اليوم - القاهرة.

٦- صلاح الدين الأيوبي - عبدالله ناصح علوان - ط دار السلام - القاهرة.

٧- تاريخ مصر إلى الفتح العثماني - عمر الاسكندري وأج سفند ج - مكتبة مدبولي - القاهرة.

٨- نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين - عبدالباسط بن خليل بن شاهين الملطي تحقيق محمد كمال الدين عزالدين علي / ط مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة.

٩- آثار مصر الاسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والاندلسيين - دراسة وتعليق د. محمد محمد الكحلاوي ط الدار المصرية اللبنانية - القاهرة.

١٠- صلاح الدين الأيوبي (قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر للميلاد). قدري قلعجي - ط شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت.

١١- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية - القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد ط دار الفرجاني - القاهرة.

١٢- تاريخ دول الإسلام - رزق الله منقريوس الصرفي - ط الدار العالمية وطبعة مطبعة الهلال بالفجالة - مصر.
١٣- الإشارة إلى وفيات الأعيان المنتقى من تاريخ الإسلام - الحافظ الذهبي - تحقيق ابراهيم صالح ط دار ابن الأثير - بيروت.
١٤- التاريخ الإسلامي (٥-٦) محمود شاكر - ط المكتب الاسلامي - بيروت.
١٥- قراقوش ونوادره - د. فاروق سعد - ط دار الآفاق الجديدة - بيروت.
١٦- نوادر قراقوش - إعداد أكرم مطر - ط دار الكتاب العربي - بيروت.
١٧- الأعلام - الزركلي - ج٥ - ط.
١٨- السلوك لمعرفة دول الملوك - أحمد بن علي المقريزي - ج١ ط وزارة الثقافة - مصر.
١٩- عجائب الآثار في التراجم والأخبار - العلامة المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي - ج الاول ط مطابع الشعب.
٢٠- العبر في خبر من غبر - الذهبي - ج٤ ط دار الكتب العلمية - بيروت.
٢١- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - د. أحمد شلبي - ج٥ ط دار المعارف مصر.
٢٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - جمال الدين بن بردى الأتابكي - ج٦ ط دار الكتب العلمية - بيروت.
٢٣- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة - علي باشا مبارك - ج١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر.

قالوا في الأمير بهاء الدين قراقوش

• «اتهم الأهالي بهاء الدين بالظلم والاستبداد ولقبوه (بقراقوش) أي الطير الأسود وهو العُقاب، ونسبوا إليه أحكاماً يبعد صدورها منه لأن صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه ولولا وثوقه بمعرفته وكفاءته لم يفوضها اليه، وكان بهاء الدين رجلاً مسعوداً وصاحب همة عالية».

«كان الأمير بهاء الدين قراقوش عالماً فقيهاً، إلاّ أنه كرّس نفسه لخدمة الشؤون الإدارية والعسكرية، فقد كان والي صلاح الدين على عكا».

(البداية والنهاية – ابن كثير)

• «كان قراقوش من أروع القادة وأشجعهم، ولقد وقع مرّة في الأسر فافتديَ بعشرة آلاف دينار وفرح به صلاح الدين فرحاً شديداً. ومن مآثره بناء سور القاهرة وقلعة الجبل فيها. ويبدو أن سياسته في القاهرة كانت حكيمة وحازمة في إزالة الفاطميين وتضييق الخناق على بقاياهم. لذلك لم يجدوا سبيلاً لمحاربته إلاّ بالإشاعات وتشويه السمعة حيث وضعوا عنه كتاباً أسموه «الفاشوش في أحكام قراقوش» وهي الإشاعات التي يرددها معاصرونا بغباء.

(د. ماجد عرسان الكيلاني من كتابه
هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس).

«وكان... بهاء الدين قراقوش... رجلاً صالحاً غلب عليه الانقياد إلى الخير» الإمام جلال الدين السيوطي.

وصف الصليبيون شخصية الأمير بهاء الدين قراقوش فقالوا:

«إنها شخصية رجل محارب، له روح غريبة أدهشت الصليبيين وأثارت إعجابهم الشديد بشخصية صاحبها ومهارته وقدرته وجلّد عزيمته حتى نظروا اليه على أنه جندي وقديس في آن معاً».

• «الأمير بهاء الدين قراقوش وهو من القدماء الكرماء، وشيوخ الدولة الكبراء، أمير الأسدية ومقدمها. وكريمها ومكرمها. ولم أر غيره خصياً لم تقاومه الفحول، ولم يؤثر في عظيم مآثره المحول».

(كتاب الوفيات)

فهرس المحتويات

قالوا في الأمير بهاء الدين قراقوش

◦ «اتهم الأهالي بهاء الدين بالظلم والاستبداد ولقبوه (بقراقوش) أي الطير الأسود وهو العُقاب، ونسبوا إليه أحكاماً يبعد صدورها منه لأن صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه ولولا وثوقه بمعرفته وكفاءته لم يفوضها اليه، وكان بهاء الدين رجلاً مسعوداً وصاحب همة عالية».

«كان الأمير بهاء الدين قراقوش عالماً فقيهاً، إلاّ أنه كرّس نفسه لخدمة الشؤون الإدارية والعسكرية، فقد كان والي صلاح الدين على عكا».

«البداية والنهاية – ابن كثير»

«وكان... بهاء الدين قراقوش... رجلاً صالحاً غلب عليه الانقياد إلى الخير».

« الإمام جلال الدين السيوطي»

◦ «الأمير بهاء الدين قراقوش وهو من القدماء الكرماء، وشيوخ الدولة الكبراء، أمير الأسدية ومقدمها. وكريمها ومكرمها. ولم أر غيره خصياً لم تقاومه الفحول، ولم يؤثر في عظيم مآثره المحول».

«كتا

وصف الصليبيون شخصية الأمير بهاء الدين قراقوش فقالوا:

«إنها شخصية رجل محارب، له روح غريبة أدهشت الصليبيين وأثارت إع
بشخصية صاحبها ومهارته وقدرته وجَلَد عزيمته حتى نظروا اليه
وقديس في آن معاً».

ISBN: 9957-13-055-2